المطلب الخامس
أداة النِّداء المستخدمة في القرآن الكريم

وأوَّل ما يتقرَّر في هذا المطلب أنَّ القرآن الكريم لم يستعمل من أدوات النِّداء في نداءاته العديدة ومواضعه الكثيرة غير (يا)[1]، اللهمَّ إلَّا ما كان من دعوى من ادَّعى أنَّ الهمزة في قراءة من قرأ، وهي قراءة سبعيَّة[2]: ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَايِمًا﴾ [الزمر:٩] بالتَّخفيف، وزعم أنَّ الهمزة حرف نداء، وتقدير الكلام: يا من هو قانت...الخ.

(١) (يا) حرف نداء، وهي أمُّ الباب، وزعم بعضهم أنها اسم فعل، معناها: أنادي، وسيأتي رد هذا الزعم. وعلى كثرة وقوع النِّداء في القرآن لم يقع نداءٌ إلا بها، وهي أعمُّ حروف النِّداء؛ إذ ينادي بها القريب والبعيد والمستغاث والمندوب. وقد تحذف نحو: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ﴾ [يوسف:٢٩]. انظر: الدر المصون (١/١٤٤)، تفسير ابن عادل (١/٤٠٦)، همع الهوامع (٢/٣٤). وعلى كثرة وقوع النِّداء في القرآن لم يقع نداء إلا بها. انظر: البحر المحيط (١/٢٣١)، ابن عادل (١/٤٠٦)، التبيان في تفسير غريب القرآن، لشهاب الدين أحمد بن محمَّد الهائم المصري (ص:٦٥). و(يا) أعم حروف النداء؛ لأنها أم الباب؛ فإنها تدخل في كل نداء خالص من الندبة والاستغاثة، أو مصحوبة بهما؛ لأنها أندى حروف النداء وأنفذها. فهي حرف وضع في أصله لنداء البعيد، وقد تستعمل في نداء القريب لغرض بلاغي، أي: أنها لنداء البعيد حقيقة أو حكما، وقد ينادى بها القريب توكيدًا، أي: إشارة إلي أن الكلام الذي يلقي أو نفس الدعاء معتنى به حتى نزل القريب –وإن كان متنبهًا لذلك– منزلة الغافل؛ لكونه لم يأت بالأكمل المناسب. وكفى بالغفلة بعدًا. وقد ينادي بها القريب؛ لبعده رفعة نحو: يا عظيمًا يرجي لنوائب. حاشية الأمير على مغني اللبيب (٢/٤١). فلا يقدر عند الحذف سوى الياء، ولا ينادي اسم الله عَزَّوَجَلَّ، والاسم المستغاث، وأيها وأيتها إلا بها.

(٢) قرأ عاصم وأبو عمرو وابن عامر والكسائيُّ: ﴿أَمَّن﴾ مشدَّدة الميم. وقرأ ابن كثير ونافع وحمزة: ﴿أَمَن﴾ خفيفة الميم. السَّبعة في القراءات (١/٥٦١). وفي (زاد المسير): "قرأ ابن كثير ونافع وحمزة وأبو جعفر والمفضل عن عاصم وزيد عن يعقوب ﴿أَمَن﴾ –بالتَّخفيف–. وقرأ الباقون بالتَّشديد، فأمَّا المشدَّدة= فمعناها: أهذا

فهناك من ادَّعى أنَّ القرآن استعمل أداةً أخرى غير (يا) ولمرَّة واحدةٍ في نداءاته. وهي (الهمزة) الموضوعة لنداء القريب في قراءة: ﴿أَمَـنْ﴾ -بالتَّخفيف-. كأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ينادي نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول له: (يا من هو قانت)..﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الذين يَعْلَمُـونَ وَالذينَ لا يَعْلَمُـونَ﴾ [الزمر:٩]..الخ. لكنَّ الصَّحيح أنَّ الهمزة هنا ليست همزةَ نداء، وإنما هي همزة الاستفهام المحذوفة المعادل، وهو ما رجَّحه الأستاذ الدُّكتور إبراهيم خليفة في (تفسيره لسورة النِّساء)[1]؛ وذلك لأنَّ همزة الاستفهام تحتاج إلى جملة مفيدة يستفهم عنها سواء كانت اسميَّة أو فعليَّة، المهمُّ أن تدخل على جملة، فنقول مثلًا: (أمحمَّد في الدَّار؟)، ونقول: (أقام محمَّد؟) مثلا، وهمزة الاستفهام كثيرًا ما يكون لها معادلٌ في الذِّكر كقولنا: (أقام محمَّد أم لم يقم؟). وقد يحذف هذا المعادل، ويكون مطويًّا في الضَّمير. فعندما نقول: (أقام محمَّد؟) ويكون في ضمير المخاطب ما هو محذوف، يعني: (أم لم يقم). وأحيانًا يحكم بوجوب أن يكون هناك شيءٌ محذوف، وذلك عندما نرى الهمزة دخلت على ما ليس جملة مفيدة. فقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الذينَ يَعْلَمُونَ وَالذينَ لا يَعْلَمُـونَ﴾ [الزمر:٩]. فإنَّ الهمزة في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ...﴾ هي همزة الاستفهام محذوفة المعادل..

=الذي ذكرنا خيرٌ أمن هو قانت؟ والأصل في ﴿أَمَّن﴾: (أم من) فأدغمت الميم في الميم. وأمَّا المخفَّفة ففي تقديرها ثلاثة أوجه: أحدها: أنها بمعنى النِّداء، قال الفرَّاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ (معاني القرآن)، (٢/٤١٦) فسَّرها الذين قرؤوا بها فقالوا: (يا من هو قانت) وهو وجه حسن، والعرب تدعو بالألف كما تدعوا بياء، فيقولون: (يا زيد أقبل) و(أزيد أقبل)، فيكون المعنى: أنَّه ذكر النَّاسي الكافر، ثمَّ قصَّ قصَّة الصَّالح بالنِّداء كما تقول: (فلانٌ لا يصوم ولا يصلي، فيا من يصوم أبشر). والثَّاني أنَّ تقديرها: (أمن هو قانت كمن ليس بقانت)، والثَّالث: (أمن هو قانت كمن جعل لله عَزَّوَجَلَّ أندادًا". زاد المسير (٤/١٠)، معاني القرآن، للفرَّاء (٢/٤١٦)، نظم الدرر (٦/٤٢٧)، (٦/٦٢٩)، معاني القرآن، للنَّحاس (٦/١٥٧-١٥٨)، وسيأتي على بيان وتحقيق ما يترجَّح من هذه الأقوال..

(١) انظر: تفسير سورة النِّساء (ص:٩٦- ٩٧).

وبعد هذا التَّمهيد أعرض تحقيق هذه المسألة لبيان أن القرآن الكريم لم يستعمل في نداءاته المتعدِّدة من حروف النِّداء سوى حرف النِّداء: (يا)، وبيان الحكمة من ذلك.

فقد جاء في (الفريد): "قرئ: ﴿أَمَنْ﴾ -بالتَّخفيف- على إدخال همزة الاستفهام على (مَنْ)، و(مَنْ) موصول في موضع رفع بالابتداء، ﴿هُوَ قَانِتٌ﴾ صلة صلته، والخبر والمعادل محذوفان، أي: (الذي صفته كيت وكيت خير أم من هو جاحد)، ودلَّ على الكلام شيئان: جرى ذكر الكافر قبله، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى...﴾ الآية. وقيل[(١)]: الهمزة للنِّدء، وبمعنى (يا)، أي: (يا من نعته كيت وكيت: أبشر فإنَّك من أصحاب الجنَّة). وأنكر على هذا بأنَّه لا وجه للنِّداء هنا؛ لأنَّ هذا في موضع معادلة لدلالة ما قبله وما بعده. وبالتَّشديد على إدخال (أَم) عليه (أَمْ مَنْ)، و(مَنْ) موصول أيضًا مبتدأ، والجملة المعادلة لـ: (أم) مع (خير) كلاهما محذوف، أي: أيهما. وقيل[(٢)]: أم منقطعة، أي: بل أمن هو قانت آناء الليل وكمن هو بضده.."[(٣)].

وتوضيح ذلك أن نقول: الهمزة للاستفهام، و﴿مَنْ﴾ موصولة مبتدأ، و﴿هُوَ قَانِتٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول. ولا يصحُّ أن تكون ﴿مَنْ﴾ للاستفهام؛ لأنَّه لا يصحُّ دخول همزة الاستفهام عليها؛ لأنَّ الاستفهام لا يدخل على استفهام[(٤)]. فعندما نجعل الهمزة للاستفهام فالجملة لم تتم بعد. ويلزم أن يكون الخبر شيئًا محذوفًا؛ لأنَّه لا يوجد

(١) قاله الفرَّاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (معاني القرآن) (٢/٤١٦). انظر ذلك مفصَّلًا في (الدُّر المصون) (٦/٨-٩)، البحر المحيط (٩/١٨٩)، تفسير ابن عادل (١٦/٤٨٢)، روح المعاني (٢٣/٢٤٦)، التَّحرير والتَّنوير (٢٣/٣٥٤)، الإتقان (١/٤٢٧)، البرهان في علوم القرآن (٤/٤٤٥)، حجَّة القراءات (١/٦٢٠-٦٢١).

(٢) القرطبي (١٥/٢٣٩)، معاني القرآن، للنَّحاس (٦/١٥٧- ١٥٨)، التَّحرير والتَّنوير (٢٣/٣٤٦)، الدر المصون (٦/٨-٩)، تفسير ابن عادل (١٦/٤٨٣)، السِّراج المنير (٣/٥٢١)، روح المعاني (٢٣/٢٤٦)، التِّبيان في إعراب القرآن (٢/٢١٤).

(٣) الفريد، بقليل من التَّصرُّف (٤/١٨٥-١٨٦)، وانظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٤/٣٤٧)، البيضاوي (٥/٣٨)، ابن عادل (١٦/٤٨٣)، السراج المنير (٣/٤٣٥)، فتح القدير (٤/٥١٩)، تفسير الإيجي (٣/٤٩٥).

(٤) انظر: مشكل إعراب القرآن (٢/٦٣١).

جزء جملة، وإلا كان الكلام غير مفيد(١)، وما دام غير مفيد فلا يحسن السُّكوت عليه، ولا يصحُّ في نظر البلغاء والنَّحويين.

فالخبر محذوف قطعًا، تقديره مثلًا: كمن ليس على هذه الصِّفة، والمعنى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ..﴾ كمن هو على مضادَّةِ تلك الصِّفة أو كأنتَ أيُّها النَّاسي..، ويقدَّر الخبر بمعونة الآية السَّابقة التي تقول: إنَّ الإنسان إذا أنعم عليه ثمَّ مسَّه ضرٌ دعا ربَّه منيبًا إليه، وإذا خوَّله الله عَزَّوَجَلَّ نعمةً منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل، وجعل لله عَزَّوَجَلَّ شركاء، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر:٨]، فعندما نقدِّر الخبر: أمن هو قانت كالنَّاسي لنعمة ربِّه الجاعلِ له أندادًا ليضلَّ عن سبيله أم الكافر المخاطب بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ أم من ليس كذلك؟.

والدَّليل على أنها همزة استفهام أنَّ خير تفسير للقرآن ما كان تفسيرًا بالقرآن نفسه فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّنْ﴾ في قراءة حفص(٢)، فإنَّ (أم) لا تكون حرف نداء، ف (أم) المعينة للاستفهام إمَّا أن تكون: (أم) المنقطعة بمعنى: (بل والهمزة)، والتي تفيد الإضراب والاستفهام معًا، أو تكون (أم) المتَّصلة، وهي التي تقع عادة في معادلة همزة الاستفهام،

(١) قال ابنُ مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في (الألفيَّة): (والخبر الجزءُ المتمُّ الفائده ***كاللهُ برٌ والأيادي شاهده). وتعقَّبه ابنُ عقيل حيث قال: "عرَّف المصنِّف الخبرَ بأنَّه الجزءُ المكمل للفائدة، ويرد عليه (الفاعل) نحو: (قام زيد)، فإنَّه يصدق على زيد أنَّه الجزء المتمُّ للفائدة. وقيل في تعريفه: إنَّه الجزء المنتظم منه مع المبتدأ جملة، ولا يرد الفاعل على هذا التَّعريف؛ لأنَّه لا ينتظم منه مع المبتدأ جملة، بل ينتظم منه مع الفعل جملة، وخلاصة هذا أنَّه عرف الخبر بما يوجد فيه وفي غيره، والتَّعريف ينبغي أن يكون مختصًّا بالمعرَّف دون غيره". شرح ابن عقيل على ألفيَّة ابن مالك (١/٢٠١– ٢٠٢). ولكن المرادي رَحِمَهُ اللَّهُ المتوفى سنة [٧٤٩هـ] قد تعقب ابنَ عقيل فقال: "ليس مراده بالجزء: جزء الكلام مطلقًا فيلزمه ما ذكرت، وإنما المراد: جزء الجملة الاسمية. وسيأتيك بيان ذلك في المتفرقات.

(٢) أي: بالتَّشديد.

أو في معادلة همزة التَّسوية كقولنا: (أمحمَّد قام أم علي؟)، أو قولنا: (أمحمَّد قام أم قعد؟)..

وبيان المنقطعة أنَّنا عندما نخبر عن شيءٍ ما، وبعدها نضرب عن هذا الشَّيء، ونستفهم استفهامًا إنكاريًّا يفيد إنكار ما سبق. ومثال ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص:٢٧-٢٨].

فالكفَّار ينكرون البعث، ومقتضى الإنكار أن يكون خلق السَّموات والأرض وما بينهما باطلا ولعبًا وعبثًا، وأن يكون تقوى المتَّقين كشقاوة الأشقياء ما دام الكلُّ إلى زوال، ولم يلقَ أحد جزاءه، بل ربما كانت شقاوة الأشقياء ومعصية العاصين ربما كان ذلك أسعد لأصحابه من تقوى المتَّقين؛ لأنَّه عندما نتصوَّرُ أنَّ الشَّقيَّ قادرٌ على أن يفعل ما يشاء، وما يحلو له من اللَّذائذ، وإن كان على حساب كثيرٍ من الضُّعفاء.

وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ ذلك منافٍ للحكمة، وقال ما قال من خلق السَّموات والأرض..، ومقتضى قولهم بعدم البعث أن يكون هذا باطل، فهذا مقتضى ظنِّهم.

﴿أَمْ نَجْعَلُ﴾، أي: (بل نجعل). والإضراب نوعان:

إضرابٌ إبطاليٌّ: والمراد منه أن نبطل ما سبق، ونأتي بجديد يصحِّحه. ومثال ذلك: الآية التي يحتمل معنى الإضراب فيها أن يكون إبطاليًّا، وأن يكون انتقاليًّا، أمَّا الإبطاليُّ فإنَّا لو تصوَّرنا أنَّه إضراب من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾، يعني: إبطال لضدِّ ما ذكر، أي: لكون خلق السَّموات....باطلًا..

والإضراب الانتقاليُّ، وهو الأظهر. ويكون الانتقال فيه من نفي أن يكون خلق السَّموات والأرض باطلًا، أو يكون من ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾..فكأنَّه انتقل وقال: دعنا من هذا الأمر المفروغ منه، ثمَّ قال: إنَّا سنأتي بما تنكره العقول السَّليمة، أي: بل أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات كالمفسدين في الأرض، بل أنجعل المتقين كالفجار، فـ:(أم) بمعنى: بل والهمزة.

أمَّا (أم) فقد وردت منقطعةً بمعنى: (بل والهمزة)، ومتَّصلة معادلة لهمزة الاستفهام أو التَّسوية كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦].

فـ (أم) في قراءة حفص للاستفهام قطعًا. لكن هل هي المتَّصلة أم المنقطعة ؟ يجوز ويجوز.

فيجوز أن نتصوَّرها المتَّصلة، وكأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: (قل تمتَّع بكفرك قليلًا أإنك من أصحاب النار أمَّن هو قانت). فإذا جعلناها متَّصلة فإنَّا نقول: همزة الاستفهام حذفت قبل ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾، ويكون التَّقدير: (يا أيُّها النَّاسي لنعمة ربِّه عَزَّوَجَلَّ الجاعل له أندادًا أأنت من أصحاب النَّار أم هو قانت آناء الليل).

والمنقطعة تكون بمعنى: (بل والهمزة)، فيكون التَّقدير: (قل تمتع بكفرك...بل أمن هو....).

والخلاصة أنَّ (أم) متعيِّنة للاستفهام، فالأولى أن يفسِّر بها من قرأ بالهمزة على قراءة التَّخفيف حتى لا تختلف القراءتان اختلافًا جذريًّا، أمَّا إذا جعلت (أم) للاستفهام فقد تطابقت القراءتان. وخير تفسيرٍ للقرآن أن يفسَّر بالقرآن نفسه، والقراءة مع أختها، يعني أنَّ القراءة تفسِّر القراءة كما تفسِّر الآيةُ الآية.

وأنتقل بعد ذلك لبيان أصل هذا الحرف (يا)، وسبب استخدامه في نداءات القرآن الكريم.

وبادئ ذي بدءٍ فلا بدَّ من بيان أنَّنا عندما نقول: (يا) حرف فهل نقصد أنَّه حرف مبنى أم حرف معنى؟ وما معنى ذلك؟

أمَّا حرفُ المبنى: فهو حرف الهجاء الذي يكون في مبنى الكلمات. نقول –مثلًا-: (ضَرَبَ)، الضَّاد مثلًا حرف مبنى.

أمَّا قولنا: (مِن) حرف جر، فهذا حرف معنى، وكذلك قولنا: (يا) حرف نداء، و(أم) حرف استفهام، و(إلى) حرف جرٍّ.

والحاصل أنَّه إذا دلَّ الحرف على معنى في غيره يسمَّى حرف المعنى، أو يقال: حرف المعنى مَا يَدُلُّ على مَعْنى غيرِ مُستَقلٍّ بالفَهْمِ مثل: (هَلْ)، (في)، (لِمْ).

أَمَّا حُرُوفُ المبْنَى فهي الحروف التي تَتَأَلَّفُ مِنْهَا كَلِمةٌ ما.

فيقال: إنَّ ابتناء هذا الحرف على حرفين أو على ثلاثة أحرف، فإنَّ الحرف في الأوَّل حرف مبنى، والثَّاني: حرف مبنى أيضًا.

أمَّا بيان ما وضع له هذا الحرف، فإنَّ أصل وضعه لنداء البعيد متوسِّط البعد -كما سبق-.

وإنَّ لغةَ العرب لغةٌ حكيمة؛ ولكونها على هذا النَّحو تنزَّل بها القرآن الكريم؛ ولأنَّ النِّداء للبعيد يناسبه اختتامه بحرف مدٍّ، من حيث كونه يساعد الصَّوت على الانطلاق.

وعندما نلاحظ ما وضع للقريب كالهمزة في (أَمحمَّد) المفروض أنَّه قريب فيسمع بمجرد النُّطق باسمه. فإنَّ مهمَّة حرف النِّداء أنَّنا نميِّز المنادَى، وأنَّنا نريد منه شيئًا؛ لأنَّنا لو قلنا: (محمَّد) فقط فقد نتكلَّم عن محمَّدٍ آخر، فلا يحتاج إلى حرف مدٍّ ينطلقُ به الصَّوت؛ لأنَّه قريب. وقد وضعوا (أَيْ) -بفتحٍ فسكون- للقريب المحبَّب. ونلاحظ أنَّ (أَيْ) فيها السُّكون من غير مدٍّ، ولا يساعد ذلك الصَّوت على الانطلاق، أمَّا لو قلت: (أي) بمدٍّ فإنها تصبح (مدَّ لِيْن) كـ (شيء)، ولم يصبح ساكنًا سكونًا كاملًا[١]، فتخرج بذلك عن كونها حرف نداء. وقد وضعت (أي) لنداء القريب المحبَّب كأن الحرف الأوَّل يشير للقرب، والحرف الثَّاني يشير للمحبَّة، فالهمزة للقريب، والياء الساكنة للحبِّ، وكون (يا) لنداء البعيد يتناسب معه انطلاق الصوت، وكون البعيد متوسِّطَ البعد تناسب معه ابتناء الأداة على حرفين فقط.

أمَّا شديد البعد فأكثر من حرفين كـ (أيا) و(هيا)[٢]؛ لأنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى غالبًا، فإن فاته الحرفان الأوليان فلن يفوته انطلاق الصَّوت بالمدِّ، فكأني أتي

---

(١) (مد اللِّين) هو مد الواو والياء السَّاكنتين المفتوح ما قبلهما، مثل: خوف، بيت، صيف. وسمِّي (بمدِّ اللين)؛ لأنَّ في النُّطق به سهولة ولين.

(٢) وفي (المقتضب): "وأما (أيا)، و(هيا) فلا يكونان إلا للنَّائم، والمستثقل، والمتراخي عنك؛ لأنهما لمدِّ الصوت". المقتضب (٤/٢٣٥).

له في أوَّل الأمر بما يمكن أن يسمعه، فإن فاته سماعه لا يفوته سماع الحرف الأخير الذي ينطلق به الصَّوت لكونه حرف مدٍّ. والموضوع له (يا) بعيد متوسِّط البعد.

واللُّغة جاءت لحاجة المخاطَبين بعضهم لبعض -كما تقدم-.

والأصل عندما تضع اللُّغة كلمةً لإفادة معنى من المعاني أن تضعها لأوَّل حاجة الإنسان المخاطَب، فأوَّل ما يحتاج الإنسان إلى التَّعامل مع الكون المحيط به. والأصل أن يكون ذلك الوضع للحاجات المحسَّة. ولنفترض أن معنا واحدًا من النَّاس فقط في بيئته، فعندما نريد أن يصبح بيننا وبينه تفاهم، ولنفترض أنَّنا نخاف عليه من حيوانٍ مفترسٍ واقفٍ أمامنا فإننا نشير له بما يفيد الابتعاد عنه، وعندما نشير له بذلك إنما نشير له على شيءٍ محسوس، فإنَّنا نضع للحيوان اسمًا بحيث لو كان المخاطَب لا يرى إشارتنا يفهم من الكلمة التي سنضعها أنَّ الذي أمامه حيوانٌ مفترس، أو الذي سيأتيه مثلًا: أسدٌ. فأسد؛ لتنبه المخاطَب، فاصطلحنا أنَّ الحيوان المفترس (أسد) فعندما أقول: (أسد) ينظر إلى هذا الحيوان —كما تقدم-.

ونرى هذا الإنسان يريد ماءً -مثلًا- يرويه ولا يجد. فنقول له: (ماء)..فالأصلُ في الأوضاع أنها للمحسوسات، ثمَّ بعد أن نضع ما نضع للمحسوسات نترقى منها للمعنويَّات بعدما نتخطَّى الحاجات الأوَّليَّة في الكون المحسِّ المشاهد؛ فلذلك فإنَّ الأصل في البعد والقرب أن يكون محسًّا يقاس بالمسافة الحسيَّة كغيره من الموضوع له. وهذا بالنِّسبة لنداءات القرآن غير قائم؛ لسببين:

الأوَّل: السَّبب الخاصُّ: وهو أنَّنا نجد أن كثيرًا من نداءات القرآن بين الخالق والمخلوق، سواء كان الطَّرف الخالق هو المنادِي —بكسر الدال المهملة- أو العكس. ومثل هذا النِّداء يلاحظ فيه عدم صلوح المسافة الحسيَّة عقلًا ولا نقلًا؛ لأنَّ الخالق عَزَّوَجَلَّ وهو أحد الطَّرفين ليس جسمًا، ولا عرضًا قائمًا بجسم، وليس مادَّة، ولا تعقل المسافة الحسيَّة إلَّا بين جسمين.

الثَّاني: السَّبب العامُّ: القرآن لا يُعنى إلَّا بالمهمَّات أصلًا، والمكان والمسافة ليس من المهمَّات؛ ولذلك نجد القرآن الكريم عندما يسوقُ القصص لا يأتي بالمكانِ المحدَّد بالضَّبط.

فمثلًا: أين كان نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟ أين كان داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟ لا يقول؛ لأنَّه ليس المكان الذي يشكِّلُ الحَدث، وليس الزَّمانُ هو الذي يشكِّلُ الحَدث، وليس اسم الشَّخص يشكِّلُ الحَدث؛ ولذلك لا يصرَّح حتىَّ بذكر اسم الشَّخص، فيقول: (فرعون) مثلًا، وهو لقبٌ لكلِّ ملوك (مصر) القدماء، و(تُبَّع) لكلِّ ملوك (اليمن) مثلًا. القرآن لا يُعني إلا بالمهمَّات، فتحديد المكان فضلًا عن المسافة الدَّقيقة لا دخل له في تشكيل الحدث. فعندما أتصوَّر مثلًا أنَّ محمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سينادي الكفَّار كما يقول الله عَزَّوَجَلَّ له مثلًا: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون:١]، صحيح أن محمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جسم محسوس، والكفَّار أجسام محسوسة، ولكن ما قيمة أن يقال: إنَّ محمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ينادي كان بينه وبين الكفَّار الذين يناديهم مسافة كذا؟ فما قيمة هذا حتى يُعنى به القرآن؟ فلمَّا كان ملاحظة المكان الحسيِّ شيءٌ يسقط من قصد القرآن؛ لأنَّه لا صلة له بتشكيل الأحداث، والقرآن إنما يعنى بموطن العبرة والحكمة، وكذلك في النِّداءات التي بين المخلوق والمخلوق لا يلاحظ المسافة الحسيَّة.

والأصلُ في أكثر الألفاظ الموضوعة لمعانٍ أنَّها جاءت موضوعة أصلًا لمحسٍّ مشاهد، وأنَّها لا تصرف إلى ما ليس حسيًّا مشاهدًا إلا بنوعٍ من الإطلاق بعد التَّقييد -كما سيأتي-؛ لأنَّ الأصل أنَّ الواضع عندما يضعُ اللَّفظ يضعه ليكونَ وسيلةَ تفاهمٍ بينه وبين مخاطَبه، ولا بُدَّ من اللَّفظ؛ لأنَّ الإشارة وحدها لا تكفي فقد يكون الشَّخص بعيدًا لا يرى الإشارة..

وملاحظةُ البُعْد الحسيِّ لا تصلح في القرآن الكريم؛ لأنَّنا عندما نحصي نداءات القرآن في الجملة نجدها قسمين:

الأوَّل: أحد الطَّرفين هو الخالق عَزَّوَجَلَّ.

والثَّاني: ما طرفاه مخلوقان.

أمَّا القسمُ الأوَّل: فلا يصلح ملاحظةُ البعد الحسيِّ بالمسافة؛ لأنَّ البُعْد الحسيَّ لا يتصوَّر إلا بين جوهرين أو جسمين، والله عَزَّوَجَلَّ منزَّهٌ عن ذلك..-كما سبق-.

وأمَّا القسمُ الثَّاني: فإنَّ القرآن لا يُعْنى بأمثال هذه الأغراض، وإنما يعني بالمقاصد الشَّريفة. وإذا نصَّ القرآن الكريم في القليلِ النَّادر على بُعْدٍ أو قرب فإنما يكون لقصد عظيم.

فالقرآن لا يُعني غالبًا بتقريرِ زمانٍ ولا مكان، ولا تحديد أشخاص بدقَّة؛ لأنَّ ذلك ليسَ له شأنٌ في تشكيل الحَدَث -كما سبق-.

فإن قال قائل: لِمَ لَمْ يُسْتَعمل ما وضع لنداء الشَّديد البعد؟

فإنَّ الجواب أنَّه إذا تركَّزَ في النَّفس أنَّ الفرق أجسمُ ما يكون، وأعظمُ ما يكون بين المنادِي -بكسر الدال المهملة- والمنادَى -بفتح الدال المهملة-، وأنَّ الغفلةَ قد بلغتْ حدَّها الأقصى في إبعادِ المنادَى -بفتح الدال المهملة- عن المنادِي -بكسر الدال المهملة-، فكيف يفهم خطابه مع وجود ذلك الفرق؟! فاليأس يجعلُ الإنسانَ لا يسمع الخطاب؛ فذلك مَلِكٌ عظيمٌ بيني وبينه أبعدَ ما يكون من التَّقارب بين المنزلتين، كذلك عندما تكون الغفلةُ بلغت حدَّها الأقصى، أو يقال: إنَّ إنسانا طغت عليه معصيته إلى حدِّ أنَّه لم يصبح عنده أيُّ أملٍ في الخلاص، فذلك يجعله ينهمك في المعصية، فكأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول للخلق مدًّا في بعض أسباب الأمل: كأنَّ بيني وبينكم مسافةً متوسِّطة بحيث لا تشقُّ عليكم، ولا تتقطَّع دونها أعناقكم، فالبعد؛ لبيان تعاظم الفرق، والتَّوسط؛ لبيان أنَّه ينبغي أن لا تنقطع بسبب هذا البعد آمالكم دون الوصول.

وهذا أمرٌ مضَّطردٌ في عادات النَّاس، وسيرًا على هذا الأمر المطَّرد جاء النِّداء بـ: (يا) إشارة إلى أنَّ الأمر الذي يُنادَى من أجله جدير بأن تحتمل من أجله المشاقُّ.

يقول الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره): "و(يا) حرف لا (اسم فعل) على الصَّحيح وضع لنداء البعيد. وقيل: لمطلق النِّداء أو مشتركة بين أقسامه، وعلى الأوَّل ينادَى بها القريبُ؛ لتنزيله منزلة غيره، إمَّا لعلوِّ مرتبة المنادِي أو المنادَى، وقد ينزَّل غفلة السَّامع وسوء فهمه منزلة بعده، وقد يكون ذلك للاعتناء بأمر المدعوّ له والحثِّ عليه؛ لأنَّ نداء

البعيد وتكليفه الحضور لأمر يقتضي الاعتناء والحثَّ، فاستعمل في لازم معناه على أنَّه مجازٌ مرسل أو استعارةٌ تبعيَّة في الحرف أو مكنيَّة وتخييليَّة.."[1].

" ثمَّ لم يبيِّن كيفيَّة إجراءِ المجاز أو الاستعارة، وعلى أيِّ الوجهين يكون أحدهما، وعلى أيِّهما يكون الآخر، وكذلك صَنَعَ من قبله الشِّهابُ الخَفاجيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2] في (حواشيه على تفسير البيضاوي)"[3].

وقد بيَّن الأستاذُ الدُّكتور إبراهيم عبد الرَّحمن خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك في شرحٍ وتوضيح لم يسبقه إليه غيره فقد جاء عند الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4] مجملًا، وبحاجة إلى بيان؛ ولذلك كانت العناية والاهتمام بما أورده الأستاذ الدُّكتور إبراهيم خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك –من البيان لكيفيَّة إجراء المجاز أو الاستعارة–؛ لأهميَّته؛ ولانفراده من بين الباحثين في التَّفسير وعلوم القرآن ببيان ذلك سواء في ذلك المتقدِّمين منهم والمتأخِّرين.

وأوَّل ما يتقرَّر في ذلك أنَّ (يا) صرف عن حقيقة ما وضع له إلى أحد أمرين:

" **الأوَّلُ**: تنزيلُ البعدِ المعنويِّ منزلةَ البعدِ الحسيِّ، سواء أكان هذا التَّنزيلُ لواحد من الغرضين أم كان لهما، فإنَّ استعمال الحرف في ذلك يكون من (المجاز المرسل) بمرتبتين:

---

(١) روح المعاني (١٨١/١).

(٢) هو أحمد بن محمَّد بن عمر، شهاب الدِّين الخفاجي المصري، قاضي القضاة وصاحب التَّصانيف في الأدب واللُّغة. نسبته إلى قبيلة (خفاجة). ولد ونشأ (بمصر)، ورحل إلى بلاد (الرُّوم)، واتَّصل بالسُّلطان مراد العثماني فولاَّه قضاء (سلانيك)، ثم قضاء (مصر). ثمَّ عزل عنها فرحل إلى (الشَّام) و(حلب) وعاد إلى بلاد (الرُّوم)، فنفي إلى (مصر) وولي قضاء يعيش منه فاستقرَّ إلى أن توفي. [١٠٦٩هـ]، وله كتب كثيرة، منها: حاشية على تفسير البيضاوي. الأعلام (٢٣٨/١)، معجم المؤلفين (١٣٨/٢)، فهرس الفهارس والأثبات (٣٧٧/١).

(٣) تفسير سورة النِّساء (ص:١٠٤)، وانظر: روح المعاني (١٨١/١)، حاشية الشِّهاب على تفسير البيضاوي (٣/٢).

(٤) انظر: روح المعاني (١٨١/١).

إحداهما: إطلاقُ البُعْد في هذا الحرف عن قيدِ خصوص كونه حسيًّا بالمسافة إلى ما هو مطْلَق بُعْد، أعمَّ من أنْ يكون حسيًّا أو معنويًا مجازًا مرسلا بعلاقة التَّقييد.

والأخرى: تقييد هذا البُعْد المطلق بخصوص كونه معنويًا مجازًا مرسلًا بعلاقة الإطلاق هذه المرَّة. ونكتةُ هذا المجاز: إظهارُ وضوح أمرِ هذا البُعْد وإبرازه في صورة المحسِّ المشاهد المرئيِّ المسافة عيانا. وإمَّا بالاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة في الحرف، بأن تشبِّه البعدَ المعنويَّ بالحسيِّ كذلك بجامع مطلق البعد في كلٍّ، ثمَّ تحذف المشبَّه به وترمز له بشيءٍ من لوازمه، وهو الحرف الموضوع لذلك البعد (يا) استعارة مكنيَّة. ونكتة الاستعارة بأيٍّ من نوعيها هي عين ما سبق من نكتة المجاز المرسل[1].

الثَّاني: الاهتمامُ بما تدعو المنادَى –بفتح الدال المهملة– من أجله، فإن إرادته من هذا الحرف هي من قبيل المجاز المرسل كذلك، لكن من إطلاق الملزوم الذي هو إفادة البعد الحسيِّ وإرادة لازمه الذي هو إفادة كون الأمر المدعوِّ له مهمًّا جديرًا أن تحمل في تحصيله المشقَّة.

ونكتةُ هذا المجاز: إبرازُ وضوح أهميَّة هذا الأمر، وبيان أنَّه كالمترتِّب على المحسوس، والتَّدليل على حتميَّة ثبوته من حيث إنَّه يلزم من ثبوت الملزوم ثبوت لازمه.

ويمكن أن تجري في هذا الوجه الاستعارة أيضًا بنوعيها بأن تشبِّه ما وقع النِّداء لأجله في القرآن بما ينادى من أجله الشَّخص البعيد بجامع مطلق الأهميَّة في كلٍّ..الخ، فالكلام هو الكلام"[2].

ولأجل توضيح ذلك يقال: إنَّ أيَّ مجازٍ أو استعارة يطلب له ثلاثة أشياء: القرينة، والعلاقة، والشَّيء الثَّالث بالغ الأهميَّة غَفَلَ عنه من أنكر المجاز، وهو النُّكتة. فمثلًا: عندما أفيد أني رأيتُ رجلًا شجاعًا عظيم الشَّجاعة أقول مثلًا: (رأيتُ أسدًا رابضًا

---

(١) الاستعارة من المجاز اللغوي، وهي تشبيهٌ حذف أحد طرفيه، فعلاقتها المشابهة دائمًا، وهي قسمان: الأوَّل: تصريحيَّة، وهي ما صرِّح فيها بلفظ المشبَّه به. والثَّاني: مكنيَّة، وهي ما حذف فيها المشبَّهُ ورُمِزَ لهُ بشيءٍ من لوازمه.

(٢) تفسير سورة النساء (ص:١٠٤–١٠٦).

خلف مدفعه). فقولنا: (رابضًا خلف مدفعه) هذه القرينة أفادت أنَّني لا أقصد (الحيوان المفترس)، فهذه هي القرينة، والعلاقة المشابهة، ولكن طالما أنني قصدت أن أفيد أني رأيتُ رجلًا شجاعًا فلماذا نبحث عن قرينة؟ ولماذا لم نُعَبِّر بالحقيقة من أوَّل الأمر؟ فبدلًا من إيقاع المخاطَب أوَّلا في اللَّبس، ثمَّ تصحيحُ ذلك بما يأتي من تمام الكلام، ثمَّ تطلب العلاقة. فبدلا من هذه التَّعمية لماذا لا يأتي المتكلِّم من أوَّل الأمر بحقيقة ما يقصده؟ فيقول من أوَّل الأمر: (رأيتُ رجلًا شجاعًا). يلزم وجود نكتة اقتضت عدم التَّعبير بالحقيقة المرادة إلى مجازٍ يراد منه هذه الحقيقة الأخرى. والتَّحقيق أنَّ هناك حقيقتين: حقيقةٌ مرادة من الكلام، وحقيقةٌ مهجورة غير مرادة من الكلام فقولنا: (رأيتُ أسدًا رابضًا) الحقيقة المهجورةُ هي: الحيوان المعروف، والمرادةُ هي: الرَّجل الشُّجاع، فلماذا لا نعبِّر بالحقيقة المرادة من أوَّل الأمر؟ ولماذا نصرف المخاطَب إلى المجاز؟

والجواب: إنَّ الحرفَ مصروفٌ إلى أحد وجهين أو كليهما: الأوَّل: تنزيلُ البعدِ المعنويِّ منزلةَ البعدِ الحسيِّ، والاهتمام بما تدعو المنادَى من أجله لأحدِ الغرضين أو كليهما..وعندما أقصد من الحرف هذه الإرادة -(البعد المعنوي)- هل يكون مجازًا أم حقيقة؟ وإن قلنا: هو مجاز فما نوعه؟ هل هو مرسلٌ أم مجازٌ بالاستعارة؟ الجواب أنَّه يجوز ويجوز. أمَّا إذا كان مجازًا مرسلًا فأينَ العلاقة؟ وأينَ النُّكتة؟ أمَّا القرينة فهي واضحةٌ، وهي استحالةُ إرادةِ البعدِ الحسيِّ بالمسافة. وقد ذكرت من قبل أنَّه مجاز مرسل فيجب أن أُبيِّنَ أوَّلًا أنَّه مجاز مرسل بمرتبتين حتَّى تتبيَّن العلاقة. وإذا كان أصل وضع الحرف هو البعدُ المقيَّد بكونه حسيًّا، فإن أوَّل خطوة في سلوك المجاز المرسل أنَّني أطلق هذا الحرفَ عن قيدِ الوضع فيه -(وهو البعد الحسي)-، فأطلق البُعْد فيه عن قيدِ كونه حسيًّا، وأريد منه (مطْلَقَ بُعْدٍ) أعمَّ من أن يكون هذا البُعْد حسيًّا أو معنويًّا، وعندما أفعل ذلك فما هي العلاقة؟ للبلغاء في تقرير علاقة المجاز المرسل قولان:

القول الأوَّل: أن ينظر في تقرير العلاقة إلى المعنى المنتقل عنه.

القول الثَّاني: أن ينظر في تقرير العلاقة إلى المعنى المنتقل إليه. وربما جمع بين الأمرين. يعني عندما يقول الله عَزَّوَجَلَّ -مثلًا-: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ [البقرة:١٩].

أو عندما أقول: (رأيتُ عينًا يتلصَّص)، وأقصد الجاسوس، أو (أعتقت رقبة) وأقصد الشَّخص كلَّه، فالرَّقبة جزءٌ من الشَّخص، فبالنِّسبة للرَّقبة عندما نقرِّر العلاقة هل أنظرُ إلى المعنى المنتقل عنه فأقول: (العلاقة الجزئيَّة)، أو أنظرُ إلى المعنى المنتقل إليه فأقول: (العلاقة الكليَّة)؟ فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ فإنَّ المراد الجزء وليس الكل؛ فالأنامل جزء، فإن نظرنا إلى المعنى المنتقل عنه نقول: (الكليَّة)، وإن نظرنا إلى المعنى المنتقل إليه نقول: (الجزئيَّة). وقد يتسامح البعض فيقول: الكليَّة والجزئيَّة.

أمَّا حرف النِّداء (يا) فهل المعنى الذي انتقلنا عنه هو التَّقيد أو الإطلاق؟ قد علم أن الأصل في وضع حرف النِّداء (يا) هو (البعد المقيَّد بكونه حسيًّا)، ولكنَّا قد انتقلنا عنه إلى إطلاق البعد من قيده الحسيِّ بحيث صار صادقًا على الحسيِّ والمعنوي، وبذلك نكون قد انتقلنا من التَّقييد إلى الإطلاق. فإن نظرنا إلى المنتقل عنه نقول: العلاقة التَّقيد، وإن نظرنا إلى المنتقل إليه نقول: العلاقة الإطلاق. وأصحُّ الوجهين أن تنظر إلى المعنى المنتقل عنه. لكن ماذا نريد من هذا الحرف هل نريد مطلق بُعْد أم خصوص البُعد المعنويِّ؟ طبعًا لا نريد مطلق بعد؛ لأنَّا إن أردنا مطلق بعد فنحن نحتاج إلى ما يقيِّد هذا المطلق. فعندما نقول مثلا: (رأيت رجلًا)، فقد أطلقت لفظ: (الرَّجل) عن كلِّ قيد، فيجوز أن يكون صالحًا أو فاسقًا أو فقيرًا أو غنيًا..الخ، ولكني أفهم حقيقة المراد عندما يذكر القيد، وإلا فإنَّك تجد النَّفس دائرة بين الاحتمالات لهذا المطلق. فإن قلنا: إنَّ المراد من (يا) هو خصوص البعد المعنويِّ فنحن نحتاج نقلةٍ أخرى أو مرتبة أخرى في المجاز. ننتقلُ عن مطلق بعد إلى تقيد هذا البعد بخصوص كونه معنويًّا، فالذي انتقلنا عنه الإطلاق فتكون العلاقة في المرتبة الثَّانية الإطلاق.

والخلاصة أن نقول: إنَّه مجاز مرسل بمرتبتين:

إحداهما: إطلاقُ البعد الحسيِّ عن قيد كونه حسيًّا إلى ما هو مطلق بُعْد أعمَّ من يكون حسيًّا أو معنويًّا بعلاقة التَّقيد، ثمَّ تقيد هذا البُعْد المطلق بكونه معنويًّا مجازًا مرسلًا لكن بعلاقة الإطلاق هذه المرَّة. والنُّكتة: إظهار ووضوح أمر هذا البُعْد. فأوضحُ ما يكون الأمر الواضح عندما يكون محسًّا مشاهدًا، فأطلقنا ما هو موضوع للبعد الحسيِّ

إشارةً إلى أنَّ أمر هذا البُعْد المعنويِّ الذي هو تعاظم الفرق، أو شدَّةُ الغفلة هو من الوضوح بمنزلة المُحَسِّ المشاهد الذي بيننا وبينه مسافة نقيسها.

أمَّا الاستعارة: فإنَّ (المشبَّه) معنويٌّ، و(المشبَّه به) حسيٌّ، يجمع بينهما مطلقُ البُعْد، ثمَّ حُذف المشبَّه، واستعير له لفظُ المشبَّه به، ثمَّ سرى التَّشبيه من الكليَّات إلى الجزئيَّات فأتينا من المشبَّه به بالحرف الذي هو موضوع لذلك البُعْد الحسيِّ (استعارةً تصريحيةً تبعيَّة في الحرف). وذلك كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه:٧١]. الأصل (على جذوع النَّخل)، فشبه الاستعلاء على الجذوع بالدُّخول فيها بجامع التَّمكن في كلٍّ، ثمَّ سرى التَّشبيه من الكليَّات إلى الجزئيَّات، وأتي بالحرف الدَّال على الظَّرفية التي هي الدُّخول في الشَّيء (استعارةً تصريحيةً تبعيةً في الحرف). و(النُّكتة): بيان وضوح هذا البُعْد المعنوي وأنَّه بمنزلة البُعْد الحسيِّ، أي: المحس المشاهد المرئي المسافة عيانًا.

الوجه الثَّاني: إن العلماء لما صرفوا (يا) عن إرادة البُعْد الحسيِّ المتوسِّط صرفوها إلى أحد أمرين:

الأول: إلى البُعْد المعنوي تنزيلًا له منزلة البُعْد الحسيِّ لأحد الغرضين أو كليهما.

الثاني: أن ينادى بـ: (يا) للدِّلالة على الاهتمام بأمر المنادَى من أجله فهذا بيان الوجه الأوَّل.

أمَّا الوجه الثَّاني فإننا عندما نريد من (يا) إفادة الاهتمام بالأمر المنادَى من أجله فإنَّ الصَّرفَ إلى هذه الإرادة من قبيل من (المجاز المرسل) كالأوَّل ولكن تختلف العلاقة هنا، فهو مجازٌ مرسلٌ بمرتبة واحدة ومختلفُ العلاقةِ والنُّكتة، وتزيد على النُّكتة هناك، فإنَّه يلزم عادة لمن يكون بعيدًا عنك بعدًا حسيًّا بالمسافة إلا تناديه إلا لأمرٍ مهمٍّ، فمعنا هنا ملزوم ولازم، وبيان ذلك على النَّحو التَّالي:

(نداءُ البعيدِ بعدًا حسيًّا) هو الملزوم. و(كون الأمر المنادَى من أجله مهمٌّ) هو اللَّازم. فهو (مجاز مرسل) من إطلاق الملزوم وإرادة اللَّازم حيث أطلقنا النِّداء للبعيد وأردنا إفادة أهميَّة الأمر. والنُّكتة تتمثَّل في أمرين: الأوَّل: إفادة هذا الوضوح الذي تحدَّثنا

عنه من قبل في الوجهِ السَّابق في المجاز وفي الاستعارة، وهو وضوح أهميَّة الأمر المنادَى من أجله، وأنَّه بمثابة المترتِّب على أمر المحسِّ. الثَّاني: -وهو الجديد- التَّدليل على الأهميَّة، وإقامة البرهان على الأهميَّة، فقولنا: (هذا الأمر مهمٌّ) مجرَّد دعوى، لكن إذا استدللنا على هذه الدَّعوى فقلنا: هذا الأمر مهمٌّ بدليل أنَّه ينادَى من أجله البعيدُ، وتحتملُ في سبيله المشقَّةُ، فكأنَّنا قد أتينا بالدَّعوى وبرهنَّا عليها. ويأتي الدَّليل من القاعدة المنطقيَّة والعقليَّة التي تفيد أنَّ بين الملزوم واللاَّزم تناسبٌ عكسيٌّ بالنِّسبة للوجود والعدم. وتصوير المسألة: أن نقول مثلًا: الشَّمس ملزوم، والضُّوء لازم، فكلَّما وجدت الشَّمس وجد الضُّوء، فيلزم من وجود الملزوم وجود اللاَّزم، وليس كلَّما انعدمت الشَّمس انعدم الضَّوء. كأن يأتي الضُّوء من القمر مثلا أو الكهرباء، فلا يلزم من عدم الملزوم عدم اللاَّزم. والعكس بالنِّسبة للازم. نقول: يلزم من عدم اللاَّزم عدم الملزوم، فيلزم من عدم الضُّوء عدم الشَّمس، ولا يلزم من وجود اللاَّزم وجود الملزوم، فلا يلزم من وجود الضُّوء وجود الشَّمس. ولكن ما معنى التَّعبير بالملزوم وإرادة اللاَّزم؟ نقول: يلزم من النِّداء للبعيد وجود لازمه، وهو أهميَّة الأمر المنادَى من أجله. حيث شبَّه أهميَّة الأمر المنادَى من أجله معنى بما ينادى من أجله البعيدُ بُعْدًا حسيًّا، فإن حذف المشبَّه وذكر المشبَّه به فهي (استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ في الحرف). وإن حذف المشبَّه ورمز له بشيءٍ من لوازمه -وهو الحرف الموضوع لذلك البُعْد (يا)- فهي استعارة مكنيَّة. ونكتةُ الاستعارة بأيٍّ من نوعيها هي عين ما سبق من نكتة المجاز المرسل.

"ثمَّ يقال ما قيل بعينه حين تتمخَّض (يا) للتَّنبيه فتدخل على الفعل في قراءة من قرأ: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الذى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النمل:٢٥] -بتخفيف اللام-، وعلى الحرف كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام:٢٧]، على القول بأنَّ (يا) في هذين الموطنين وأمثالهما هي حرف تنبيه لا حرف نداء، أمَّا على القول بأنها حرف نداء والمنادى محذوف فلا يعوذ حملها على ما يليق بها من الوجهين الآنفين"(١). فـ ﴿أَلَّا﴾ في

---

(١) تفسير سورة النساء، أ.د إبراهيم خليفة (ص:١٠٦).

قراءة التَّشديد تحمل على أنها مركَّبة من (أَنْ)، وقد دخلت عليها (لا) فأدغمت فيها، ﴿يَسْجُدُوا﴾: فعل مضارع منصوب بأن و(لا) نافية، ولكن بالتَّخفيف قراءتها هكذا (ألا يا اسجدوا). وتوجيه ذلك أن يقال: ﴿أَلَا﴾ حرف استفتاح وتنبيه أو يقال للعرض. و(اسجدوا): فعل أمر، ف (يا) دخلت على فعل الأمر، ودخلت على الحرف في ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾، و(يا) عندما تدخل على الفعل أو على الحرف فيها توجيهين:

التَّوجيه الأوَّل: أن يقال: إن (يا) حرف تنبيه.

والتَّوجيه الثَّاني أن يقال: إنَّ (يا) حرف نداء والمنادى محذوف، ويكون التَّقدير مثلًا: (يا هؤلاء اسجدوا)، و(يا هؤلاء ليتنا نردُّ)، (يا نفس ليتنا نردُّ)، فعندما تكون حرف نداء يجري عليها ما سبق، أمَّا عندما تكون حرف تنبيه فيقال: الكلام أيضًا هو الكلام من حيث إنَّه لا ينبَّه إلا إلى الأمر المهمِّ فيمكن أن تجري المجاز أو الاستعارة عندما تتمحض (يا) للتَّنبيه[1].

---

(١) وتفصيل الإعراب في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ "قُرئ بتشديد ﴿أَلَّا﴾ [قرأ جمهور السَّبعة (ألَّا) –بالتَّشديد-. وبالتَّخفيف قرأ الكسائي. انظر: السبعة في القراءات (ص:٤٨٠)، والحجة في القراءات (٢٧١/١)، وحجة القراءات (٥٢٦/١-٥٢٨)] على أنها (أن) دخلت عليها (لا) فأدغمت فيها. و﴿يَسْجُدُوا﴾ منصوب بأن، وفي محلِّ (أن) وجهان: أحدهما: النَّصب إمَّا مفعولًا له على معنى: (فصدَّهم عن السَّبيل لئلَّا يسجدوا) أو (زين لهم لئلَّا يسجدوا)، فحذف الجارَّ، أو بدل من قوله: ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾، أي: (وزيَّن لهم ألا يسجدوا). ويجوز أن يكون من صلة الابتداء على أن (لا) صلة، أي: (وزيَّن فهم لا يهتدون ألا يسجدوا). والثَّاني: الجرُّ على البدل من السَّبيل متعلِّق بالله. أي: (فصدَّهم عن أن يسجدوا)، و(لا) صلة أيضًا. وقُرئ –بتخفيفها- على أن (ألا) تنبيه، و(يا) حرف نداء ومناداه محذوف كحذفه في قوله:

(يا لعنة الله والأقوام كلِّهم***)

هذا صدر بيت من (البسيط)، وعجزه: (***والصَّالحين على سمعان من جار). وهذا من شواهد (الكتاب)، انظر: الكتاب، بتحقيق: عبد السَّلام هارون (٢١٩/٢)، وفي البيت يدعو على جاره؛ لأنَّه لم يرع حقَّ الجوار، والشَّاهد فيه حذف المدعو؛ لدلالة حرف النِّداء عليه، والمعنى: (يا قوم) أو (يا هؤلاء) لعنة الله على سمعان؛ ولذا رفع (لعنة) بالابتداء، ولو أوقع النِّداء عليها لنصبها]. انظر: تفسير القرطبي (١٨٦/١٣)، انظر ذلك مفصَّلًا في (الدُّر المصون) (٣٠٧/٥-٣٠٩)، تفسير ابن عادل (١٤٤/١٥)، البحر المحيط (٦٧/٧)، معاني القرآن، للنَّحاس (١٢٦/٥)، أضواء البيان (١١٣/٦-١١٤)، المحرر=

وسيأتي مزيد من البيان في المطلب الذي يتعلَّق بدخول حرف النِّداء: (يا) على الاسم في الخطاب القرآني..مع بيان التَّرجيح..

=الوجيز (٤٥٠/١). والتَّقدير: (يا قوم)، أو (يا هؤلاء اسجدوا) فحذف المنادى للعلم به، وحذفت الألف لالتقاء السَّاكنين، ولما حذفت من اللَّفظ حذفت من الخطِّ، وكذلك في (اسجدوا) حذفت لفظًا وخطًّا، فبقي ﴿يَسْجُدُوا﴾ كما ترى. قال أبو علي [وهو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان أبو علي الفارسي النَّحوي. انظر ترجمته في (البلغة في تراجم أئمة النَّحو واللُّغة) (ص:١٣)، تاريخ بغداد (٢٧٥/٧)]. ووجه دخول حرف التَّنبيه على الأمر أنَّه في موضع يحتاج فيه إلى استعطاف الأمور؛ لتأكيد ما يؤمر به كما أنَّ النِّداء موضع يحتاج إلى استعطاف المنادى لما ينادي له من إخبار أو أمر أو نهي، ونحو ذلك مما يخاطب به. انتهى كلامه". الفريد في إعراب القرآن المجيد (٦٨١/٣)، وانظر: معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (١١٥/٤–١١٦).